مجلة الإحياء، المجلد: 19، العدد: 23، ديسمبر 2019، ص - ص: 695 – 724
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

الحالة العلمية بالجزائر في العهد العثماني (القرنان الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد)، من خلال رحلة أبي راس المعسكري "فتح الإله ومنته"

The scientific situation in Algeria during the Ottoman period (18th and 19th centuries), through the journey of Abi “Ras al-Maasari" “The opening of the god and its end"

شلابي نبيلة[1] **د. عمر حيدوسي**
كلية العلوم الإسلامية جامعة باتنة1- الجزائر-
nabilachala@yahoo.com hidoussi.72@gmail.com
مخبر الانتماء: مخبر العلوم الإسلامية في الجزائر

تاريخ الإرسال: 2019/07/31 تاريخ القبول: 2019/11/17

الملخص:

يدور موضوع هذا المقال حول الحالة العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني عامة، وزمن أبي راس المعسكري بالخصوص، وبالضبط حوالي منتصف القرنين الثاني عشر للهجرة، والثامن عشر الميلادي (1150هـ/1757م)، والنصف الأول من القرنيين الثالث عشر الهجري، والتاسع عشر للميلاد (1238هـ/1824م)، حيث تميزت الأوضاع العلمية عموما بسيطرة العلوم الشرعية، من فقه وأصول وحديث..، والعلوم الصوفية، وكذلك بعض المجلات الأدبية، خاصة النحو ومختلف ألوان النثر الأدبي، وكذلك الشعر، كما لم تكد المراكز العلمية في ذلك العهد تخرج عن المسجد

[1] - المؤلف المرسل

والزاوية والكتاب..، بالإضافة إلى بروز العديد من العلماء في الجزائر في ذلك العهد ومن أبرزهم مؤلفنا أبو راس المعسكري، الذي ألف في مختلف علوم ذلك العصر على غرار أترابه من العلماء الجهابذة، والميزة الظاهرة على هته العلوم هي ظاهرة التقليد وكذلك الحفظ، فلا تكاد تجد عالما مجددا، إلا ناذرا جدا، فجل الإنتاج العلمي في ذلك العهد كان عملا على مؤلفات السابقين إما حاشية أو تعليقا، وبذلك يكون هذا العهد عصر الجمود الفكري والعلمي رغم كثرة العلماء والمؤلفات.

الكلمات المفتاحية:

الجزائر،العهد العثماني، الحالة العلمية، كتب الرحلات، أبو راس المعسكري.

Abstract:

This article deals with the scientific situation in the Ottoman's Algeria in genaral, and especially during the period of Abu Ras El-Maaskari. Exactely about the midle of the 12th hijri century /the 18th centuryAD (1150 h – 1757 ad) and the first half of the 13th hijri century/the 19th centuryAD (1238 h – 1824 ad). That period knew the domination of the islamic sciences such as fiqeh, Ussul, Hadith and Sufi sciences, and some litterature sciences especially grammar, prose and poetry.

The scientific centres were -just- mosques and zawaya and domes, in addition to several scientists in Algeria in that period, such as the author of the studied journey in this article: Abu Ras El-Maaskari, who wrote in many fields and sciences.

The specifity of science in that age is tradition and simulation and memorizing. That's why its too rare to find an innovator. Almost of the scientific productions in that period was rewritings of the previous ones, by footnotes or comments. It was the age of the scientific inertia, although the big number of scientists and books.

Keywords:

Algeria, Ottoman period, scientific situation, journey books, Abu Ras El-Maaskari.

مقدّمة:

لقد تفوق المغاربة في فن الرحلة ووضعوا فيه مؤلفات بديعة طبع بعضها وأكثرها لا يزال مخطوطا ومنها ما يعتبر ضائعا ولا يعرف إلا بالنقل عنها في كتب التاريخ والأدب والتراجم، ولقد أضاف الجزائريون إلى أدب الرحلة عدة مؤلفات وكان لهم حضور فيها خصوصا في الفترة العثمانية التي تميزت عن غيرها من فترات تاريخ الجزائر، فكانت فترة قائمة بذاتها، لها طابعها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي الخاص بها، فيكون لهذه الرحلات الجزائرية فوائد تاريخية جمة نظرا لقلة المصادر العربية التي يعول عليها لنفض الغبار وإلقاء الضوء على فترة دامت ثلاثة قرون في تاريخ الجزائر، وهي أكثر الفترات غموضا وتشويها، هذه الفترة التي لازالت مجهولة بعض الجوانب وتعاني قلة المصادر، والذين عاشوا في هذه المرحلة وتعايشوا معها، من علماء وأدباء وفنانين وفقهاء ومؤرخين..،لاعجب أنهم يتأثرون بطبيعة هذه البيئة وما يحيط بهم فيها، فيصطبغ نتاجهم بصبغة خاصة تتجلى من خلالها بصمة العصر، إذ أن أغلب هؤلاء العلماء كانوا مشغوفون بالرحلة سواء إلى المشرق بهدف أداء فريضة الحج أو لأغراض علمية، وبذلك كان حرصهم شديد على تدوين دقائق رحلاتهم ومجرياتها، وتسجيل يومياتهم وملاحظاتهم التي لا تخلو في الغالب من إشارات دالة ببلاغة على جوانب من الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية للجزائر في ذلك العهد، ومن علماء الجزائر الذين اهتموا بالرحلة في ذلك العهد **محمد أبو راس المعسكري الجزائري** الذي ألف كتابا في الرحلة سماه: **"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"**، وهذا الكتاب هو موضوع هذه الدراسة، والذي سنحاول من خلاله إلقاء الضوء عن الحالة العلمية للجزائر في العهد العثماني زمن أبي راس؛ أي في منتصف القرن الثاني عشر الهجري، والثامن عشرة للميلاد، وأوائل النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، والتاسع عشر للميلاد.

وبذلك يمكن صياغة إشكالية الدراسة كالتالي: إلى أي مدى وفق الرحالة أبو راس المعسكري في وصف وتصوير الحالة العلمية للجزائر في العهد العثماني من خلال رحلته العلمية " فتح الإله"؟.

ويتعلق بهذه الإشكالية عدة أسئلة فرعية منها:

- ما هي أهم المراكز العلمية في الجزائر خلال الفترة العثمانية عموما وزمن أبي راس المعسكري خصوصا؟
- ما هي أهم العلوم في ذلك العهد، وما هي أهم المؤلفات فيها؟
- من أهم علماء الجزائر في ذلك العصر؟
- ما هي أهم المظاهر ا لتي ميزت الحالة العلمية في تلك الفترة ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة وأخرى قسمت هذه الدراسة إلى عدة عناصر مهمة، فكان العنصر الأول في التعريف بأبي راش المعسكري ورحلته، ويشمل نسب أبي راس ومولده ونشأته وإنتاجه العلمي، وكذلك التعريف برحلته فتح الإله بمحتواها ومنهجها..، أما العنصر الثاني فيتحدث عن الأوضاع العلمية في الجزائر من خلال رحلة أبي راس المعسكري، ويركز هذا العنصر على أهم المراكز العلمية والنتاج العلمي، وأهم رجالات العلم في الجزائر في العهد العثماني، وبالضبط زمن المعسكري.

أولا: التعريف بأبي راس المعسكري ورحلته

أ- التعريف بأبي راس المعسكري

1- مولده ونشأته: هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد الراشدي الجليلي المعسكري المعروف بأبي راس، مؤرخ وحافظ له مشاركة في الفقه والأدب والحديث وغير ذلك من العلوم[1].

ولد محمد أبو راس المعسكري حوالي منتصف القرنين الثاني عشر للهجرة، والثامن عشر الميلادي (1150هـ/1757م) قرب جبل كرسوط بالغرب الجزائري (قرب مدينة معسكر)، وقد نشأ في بيئة فقيرة وظل الفقر يطارده حتى قضى نحبه، فعاش فقيرا ويتيما، إذ توفيت أمه ثم أبوه فكفله أخوه الأكبر[2]، تنقل في صغره بين مسقط رأسه ومتيجة وتنس والمغرب الأقصى، وحفظ القرآن الكريم واستوعب العلوم العربية والإسلامية من علماء وفقهاء عصره[3].

2- شيوخه وتلاميذه: درس أبو راس على مشايخ كثيرين، تتلمذ على بعضهم وهو في معسكر والمغرب ومدينة الجزائر وقسنطينة وتونس، وعلى آخرين حين توجه إلى الحج في مصر والحرمين، وقد ذكرهم في رحلته،

فدرس في الجزائر على كل من **الشيوخ: عبد القادر المشرفي** الذي اشتهر بالعلم التقليدي بالإضافة إلى الأخبار والتاريخ، وكان المربي والموجه والمشجع لأبي راس على شق حياته، فلازمه مدة وكان يعمل عنده، حتى خلفه في التدريس فيما بعد[4]، و**محمد بن جدعون** قاضي مدينة الجزائر، و **أحمد بن عمار** المفتي صاحب رحلة "نحلة اللبيب في الرحلة إلى الحبيب"، و**الحاج علي بن الأمين** مفتي مدينة الجزائر، و **محمد بن الفقون** (الفكون)..، وغيرهم كثير، كما درس **في تونس** على عدة أشياخ منهم: **محمد المحجوب، وصالح الكواش، وإبراهيم الرياحي، وأحمد بيرم**..، وغيرهم، أما **في مصر**، فلقي عدة علماء وأجازوه من بينهم: **مرتضى الزبيدي، وعبد الله الشرقاوي، ومحمد الأمير**..، بالإضافة إلى علماء آخرين لقيهم **في المشرق والمغرب** وأخذ عنهم ومن هؤلاء: **عبد الرحمان التادلي، وعثمان الحنبلي، وعبد الملك القلعي، وعصمان الشامي..**، وغيرهم، وقد ألف أبو راس كتابا يذكر فيه شيوخه ومن أجازه منهم والألقاب التي حصل عليها منهم والمناظرات التي جرت مع بعضهم سماه: **"لب أفياخي في عدة أشياخي**[5].

أما عن تلاميذه؛ فقد أخرج أبو راس عددا كبيرا من التلاميذ من أبرزهم وهم أيضا علماء:

أبو حامد المشرفي، صاحب التآليف العديدة في التاريخ والأدب والرحلات[6]، و**مصطفى بن عبد الله بن عبد الرحمان الدحاوي،** المشهور بابن زرفة صاحب الرحلة القمرية..، وغيرهم[7].

3- رحلات أبوراس المعسكري: عرف أبو راس الرحلة منذ الصغر، فقد تنقل في أنحاء القطر الجزائري من غربه إلى شرقه وتجول في المغرب الأقصى وتونس ومصر والحجاز وبلاد الشام، كما كرر الحج بفارق زمني بلغ عشرين سنة لذلك كانت حياته مليئة بالتجارب[8]، كما تنقل أبو راس بين عدة مدن في الغرب الجزائري، وأنجز مدة حياته رحلتين إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، كما زار خلال الرحلتين الشام وفلسطين، وكان بدء سفره إلى المشرق سنة (1204هـ)، وقد ذاع صيته في هذه البلدان بعلمه الواسع وكثرة حفظه حتى لقب بالحافظ، كما لقب في مصر بشيخ الإسلام، ولما رجع إلى الجزائر

تقلد عدة مناصب، الفتوى والقضاء والخطابة في جامع بلده معسكر لكنه عزل عن الوظيفة سنة 1211هـ، ثم اتصل بعد ذلك بسلطان المغرب مولاي سليمان، وتنقل إلى فاس واشتهر أمره بها ومكث مدة ثم عاد إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مرة أخرى سنة 1226هـ/ 1813م، وبعد عودته إلى الجزائر اشتغل بالتأليف إلى وفاته. (9)

4- وفاته: يقول صاحب كتاب "طلوع سعد السعود.." الآغا بن عودة المزاري عن وفاة أبي راس : "ومات بوقته (يقصد الباي حسن بن موسى الباهي في سياق حديثه عنه) مجدد القرن الثالث عشر ذو التآليف العديدة والتصانيف الكثيرة المديدة..العلامة الأفرد أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر.. الراشدي المعسكري الناصري الذي ليس له نظير بالراشدة.. يوم الأربعاء خامس عشر شعبان سنة ثمان وثلاثين ومائتان وألف من هجرة من له كمال العز والشرف(الموافق لـ 27 أفريل 1823م)..، ودفن بعقبة بابا علي من المعسكر"(10)، كما جاء في كتاب تعريف الخلف برجال السلف أن أبو راس الناصري توفي عام (1238هـ/1824م)، وقد جاوز التسعين سنة ودفن بمعسكر. (11)

5- مؤلفاته: لقد كتب أبو راس وألف في مختلف الأغراض والفنون شعرا ونثرا، وخلف وراءه مائة وستة وثلاثون مخطوطة بين قصيرة وطويلة بعضها موجود والبعض مفقود، ولم يطبع إلا واحدة أو اثنين منها وهناك مخطوطة ذكرها أبو راس سجل فيها قائمة إنتاجه الفكري تحمل عنوان: **"شمس معارف التكاليف في أسماء ما أنعم الله به علينا من التآليف"**، كما ذكر مجموعة من مؤلفاته في رحلته: **"فتح الإله.."**في الباب الخامس الذي عنونه بـ **"العسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز"**،ويتضح أنه ألف في ثمانية عشر علما وفنا ومادة، فمثلا في **علم التاريخ** وحده ألف أربعا وثلاثين مخطوطة منها:

- زهرة الشماريخ في علم التاريخ.
- الوسائل إلى معرفة القبائل.
- الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية(12) (قصيدة تاريخية).

- حلتي ونحلتي في تعداد رحلتي.
- فتح الإله ونعمته في التحدث بفضل ربي ونعمته.
- عجائب الأسفار ولطائف الأخبار.
- ذيل القرطاس في ملوك بني وطاس[13].
- غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس للمسلمين مع الكفار.
- مروج الذهب في نبذة من النسب ومن إلى الشرف انتهى وذهب.
- درء الشقاوة في حروب الترك ودرقاوة[14].

ومن تآليفه في مختلف العلوم الأخرى كعلوم القرآن والحديث والفقه والنحو والعروض، وكذلك في التصوف والتوحيد، وغيرها من علوم العصر منها:

- مجمع البحرين ومطلع البدرين بفتح الجليل للعبد الذليل في التيسير إلى علم التفسير(في القرآن).
- الآيات البينات في شرح دليل الخيرات (في الحديث).
- الأحكام الجوازل في نبد من النوازل (في الفقه).
- الدرة اليتيمة (في النحو).
- الحاوي لنبد من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي (في التصوف).
- ضياء القابوس على كتاب القاموس(في اللغة).
- القول المسلم في شرح السلم (في المنطق).
- شرح مشكاة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار(في العروض).
- الحلل الحريرية في شرح المقامات الحريرية (في الأدب).
- الدرة الأنيقة في شرح العقيقة(في القصائد)[15].

ب- التعريف برحلة أبي راس

1- اسم الرحلة: لأبي راس تأليف تحت عنوان **"فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته"** وهو عبارة عن ترجمة ذاتية له، صنفها في خمسة أبواب، وزع بينها الحديثبتوسع عن ابتداء أمره وشيوخه ورحلاته بالمشرق وغيره ثم أجوبته ومؤلفاته، وبذلك يكون نوعا من السيرة الذاتية (رحلة).[16]

2- وصف الرحلة: رحلة أبي راس "فتح الإله" مخطوطة قام بتحقيقها محمد بن عبد الكريم الجزائري والذي اعتمد في تحقيقه على ثلاثة نسخ هي:

- مخطوطة المرحوم المحدث الشيخ الكتاني المغربي، وتوجد هذه المخطوطة بالخزانة العامة بالرباط.
- مخطوطة الفقيه المؤرخ الشيخ عبد الرحمان الجيلالي الجزائري.
- مخطوطة الشاعر الأديب الشيخ أحمد جلول البدوي الجزائري.

يقول المحقق أن هذه المخطوطات واضحة الخط سالمة من الأخطاء[17].

3- محتوى الرحلة: يقول أبو راس عن رحلته هذه: **"وإني قد عزمت على تأليف عظيم الجدوى بليغ الفحوى يحتوي على أبواب وأسئلة وفتوى"**[18]، وقد قسمه إلى خمسة أبواب كما يقول وهي كالتالي:

- **الباب الأول:** في **"ابتداء أمري"**، وقد ركز فيه الحديث عن مولده ونسبه وطفولته وبعض أفراد أسرته.
- **الباب الثاني:** في عدة أشياخي، وقد اختار له عنوان: **"في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة"**..، ففي هذا الباب ذكر أبو راس شيوخه مبتدئا بوالده ومنتهيا بالشيخ السنوسي..، وقد عدّ ما يقارب الخمسين شيخا، جلس إليهم، وتعامل معهم، وأخذ عنهم مختلف علوم ذلك العصر (الفقه واللغة والتصوف..).
- **الباب الثالث:** في رحلتي للمشرق وغيره، وهذا العنوان هو الذي يصوغ هذا التأليف "فتح الإله.." ضمن فن الرحلة، والذي اختار له عنوان **"في رحلتي للمشرق والمغرب وغيرهما ولقاء العلماء الأعلام وما جرى لي معهم من المراجعة والكلام"**، وفيه حديث عن رحلته التي خرج فيها إلى الحج، والتي قادته في البداية إلى بعض مناطق الوطن الجزائري، كالجزائرالعاصمة وقسنطينة، ثم تونس ومصر والبقاع المقدسة وبلاد الشام، حيث كان الختام بغزة في فلسطين، ثم العريش في شمال سيناء بمصر.
- **الباب الرابع:** في معارضة العلماء وأجوبة عن أشياء مختلفة، والذي وضعه تحت عنوان **"في الأسئلة وما يتعلق بها"**، وقد تركز الحديث فيه عن تعداد المسائل التي عرضت عليه، وناقش أمرها، وأجاب عنها في مختلف الأقطار

والأماكن التي زارها أو مر عليها أثناء رحلته، إضافة إلى مناظراته التي كانت بينه وبين علمائها ومشايخها[19].

- **الباب الخامس:** في تأليفي في كل فن، والذي جاء تحت عنوان **"العسجد والإبريز في عدة ما ألفت بين بسيط ووسيط ووجيز"** وفيه عدد وصنف أبو راس، وذكر عناوين ما ألف، وعلق على بعضها شرحا وتوضيحا وتعريفا بالمضمون[20].

4- مصادر الرحلة: لقد ذكر أبو راس أنه اقتدى في كتابه الرحلة بالسابقين له من الرحالة المغاربة وغيرهم فقال: **"وأسوتي في ذلك رحلة الجهابذة النحارير والأسانيد الجماهير"**، ومن هؤلاء الرحالات التي اعتمد عليها:

- رحلة الإمام ابن رشيد السبتي **"ملء العيبة في طول الغيبة إلى مكة وطيبة".**
- رحلة الخطيب ابن مرزوق.
- رحلة أبا سالم العياشي **"ماء الموائد".**
- رحلة أحمد بن الناصر الدرعي **"الرحلة الناصرية"**[21].

5- منهج أبي راس في رحلته: تتميز رحلة أبي راس المعسكري بمنهج دقيق؛ خاصة في تقسيم أبوابها كما سبق ذكرها، إذ تبدو رحلته مختلفة عن بقية الرحلات، لأنها تهتم بالدرجة الأولى بالموضوعات العلمية، فكان محل عنايته ما يقابله من علماء وشيوخ، وما يحفظه من علم أو رواية عن هؤلاء العلماء؛ فقد اعتبر الكثير من الباحثين رحلة أبي راس رحلة علمية بامتياز، لأن الجانب العلمي طفا عليها بجميع مظاهره إلى الحد الذي كاد أن يخرجها من دائرة فن الرحلة، لولا حضور بنية السفر الدالة على الحركة والانتقال داخل الإطار المكاني المعبر عنه بأسماء المدن والأقطار، والأكيد أن البعد العلمي سيكون مسيطرا على مختلف محطات الرحلة[22]، وبالإضافة إلى المنهج العلمي للرحلة، فإن أبا راس اتبع منهج السيوطي وغيره من العلماء كما ذكر ذلك بقوله: **" أما ابتداء أمري..، وأما ما نذكره من نسبي فسلفي فيه الإمام عبد الرحمن السيوطي.."** [23].

ثانيا: الأوضاع العلمية في الجزائر خلال العهد العثماني زمن أبي راس (أواخر القرن 18م، وأوائل القرن 19م) من خلال رحلته

وللحديث عن الحالة العلمية في الجزائر خلال الفترة العثماني التي ستستخلص من رحلة المعسكري سنركز على ثلاث أمور مهمة وهي: المراكز العلمية(أهم المؤسسات العلمية)، والنتاج العلمي (أهم العلوم التي تدرس وأهم المؤلفات فيها)، بالإضافة إلى أهم العلماء الذين اشتهر أمرهم في الجزائر، والذين ورد ذكرهم في رحلة أبي راس، وسنتبع هذه العناصر الثلاثة المهمة بأهم مميزات الحالة العلمية أي المظاهر البارزة كظاهرة الحفظ والتقليد، وهجرة العلماء..

أ- **المراكز العلمية:** كانت الحركة العلمية في الجزائر في العهد العثماني موزعة على سبعة مراكز - حسب ابن ميمون-، كل منها يقوم بوظيفته التي أسندت إليه أحسن قيام حسبما تتطلبه ظروف العصر وتقتضيه قوانين إقليم القطر[24] فلا تكاد المؤسسات التعليمية تخرج عن المسجد والمدرسة والزاوية والمكتبة، ومعظم هذه المؤسسات كانت للتعليم ، ولم يكن من بين هذه المؤسسات جامعة أو معهد عال رغم أن بعض المساجد والمدارس والزوايا كانت تبث تعليما في المستوى العالي..، وأكبر مؤسسة كانت تغذي هذه المؤسسات جميعا هي مؤسسة الأوقاف"[25]، وأغلب هذه المراكز العلمية ورد ذكر ها في رحلة أبي راس خاصة المساجد.

1- المساجد: والتي كانت فيما عدا أوقات الصلاة مرتعا لحلقات الدروس اليومية ومحطا لفنون العلوم التي كانت تدرس في ذلك العهد[26]، فكانت الجوامع والمساجد بذلك للعبادة والتعليم، وقد كانت أغلب المدن الجزائرية تشمل مسجدا يطلق عليه اسم (الجامع الكبير) وهو المسجد الذي اشتهر بين الناس إما لقدمه أو لسعته، وقد يطلق على بعض المساجد اسم (المسجد العتيق) أو القديم..، فيصبح بذلك المعنى شيخ المساجد وحامي حمى المدينة في نظر السكان، وبذلك يكون موضع اهتمام الحكام وهدف المحسنين للوقف عليه[27].

والعناية بالمساجد كانت ظاهرة بارزة في المجتمع الجزائري، فلا تكاد تجد قرية أو حيا في المدينة دون مسجد، فقد كان المسجد هو ملتقى العباد ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، كما كان الرابطة بين أهل القرية والمدينة، وقد ذكر أبو راس الجامع الكبير في الجزائر الذي كان محط رحال العلماء والطلبة من كل مكان...[28].

2- الكتاتيب: كان الكتاب أقل وحدة للتعليم الابتدائي، وكان يسمى أحيانا بالمكتب، كما كان يطلق عليه ولاسيما في العاصمة اسم "مسيد" فهو من دون شك - حسب سعد الله- تصغير كلمة مسجد، ذلك أن الكتاب مخصص عادة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ القراءة والكتابة للأطفال؛ فقد كان في الغالب عبارة عن حجرة أو دكان أو جناح في مسجد معد لذلك الغرض، وكانت الكتاتيب منتشرة في جميع الأحياء وكثير منها كان يحمل اسم الحي الواقع فيه وبعضها كان يحمل اسم الزاوية أو الشارع الموجود به، وأحيانا كان الكتاب يحمل اسم الواقف أو المؤدب المشهور، وإذا كان الكتاب يقع في البادية فيسمى الشريعة فتنصب له خيمة خاصة بتحفيظ القرآن وإقامة الصلوات ونحو ذلك[29].

3- الزوايا: من أبرز ميزات العهد العثماني في الجزائر: انتشار الطرق الصوفية، وكثرة المباني المخصصة لها، وهي الزوايا ونحوها، ففي المدن والأرياف، وفي الجبال الشاهقة، والصحاري القاحلة عاش معظم المتصوفة يلقنون أتباعهم الأذكار والأوراد، فإذا اشتهر أحدهم بين الناس أسس له مركزا يستقبل فيه الزوار والغرباء والأتباع، ويعلم فيه الطلبة، ويتبرع الناس لهذا المركز فيكبر ويثرى ويتضاعف قاصدوه ومريدوه، ويصبح اسم المتصوف المرابط علما على المكان، ويصبح المكان يدعى بين الناس زاوية سيدي فلان، فإذا مات هذا المرابط يدفن في الزاوية، ويصير الضريح علامة على الزاوية، والزاوية علامة على الضريح، ويرث الأبناء والأحفاد مكانة وعمل المرابط، وتزداد قداسة الزاوية بين أهل الناحية وتنتشر سمعتها ونفوذها إلى نواح أخرى بعيدة[30].

وقد كانت الزوايا تحتل مكان الصدارة بين مراكز التعليم من ناحية تعليم المعوزين والفقراء من أبناء الشعب، وكانت مقسمة إلى قسمين: قسم يقوم

بوظيفة تحفيظ القرآن الكريم، وقسم يقوم بتدريس بعض فنون الوقت، لاسيما الفقه، والعقائد، وقواعد النحو والصرف، وفنون البلاغة، والمنطق وبعض المبادئ في علم الفلك.. [31]

4- المدارس: والمدارس أمكنة خصصت لإلقاء الدروس بها، ولم تكن توجد إلا ببعض المدن الرئيسية مثل قسنطينة والجزائر وبجاية ووهران وتلمسان، وكانت بهذه المدارس غرف يسكنها الطلبة الغرباء، وقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حتى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية، وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان، وكانت الأوقاف والصدقات تلعب دورا هاما في انتشار المدارس ونشر التعليم... [32].

وقد لاحظ أبو راس الذي زار مدينة الجزائر سنة 1214ه وجود المدرسة القشاشية وأشاد بها على أساس أنها مركز للتعليم الثانوي والعالي[33].

5- المكتبات: كانت الجزائر خلال العهد العثماني في طليعة البلدان الكثيرة الكتب والمكتبات، فكانت الكتب في الجزائر تنتج محليا عن طريق التأليف والنسخ أو تجلب من الخارج ولاسيما من الأندلس ومصر وإسطمبول والحجاز، وكان هناك رصيد كبير من المكتبات قبل مجيء العثمانيين[34]، وقد كانت طرق اقتناء الكتب تختلف منها النسخ والاستنساخ فشاعت حركة النسخ والاستنساخ في الجزائر حتى أنه كان لها أخصائيون مشهورون[35].

وقد كان الشراء من أهم طرق الحصول على الكتب ولم يقتصر ذلك على الأغنياء فقط بل كان يشمل حتى فقراء العلماء[36].

وقد كانت المكتبات في الجزائر عامة وخاصة (وهي التي كانت تضم أشتات المخطوطات في مختلف فنون الوقت كما كان يرتادها الطلبة والأساتذة من جميع النواحي للمطالعة فيها ولاسيما المكتبات العامة التي كانت وقفا وحبسا على المساجد والزوايا والمدارس وقد كانت هذه المكتبات العامة موزعة على القطر الجزائري حسب أهمية الأماكن من حيث الثقافة والاعتناء بتدريس العلوم

لا سيما المدن مثل الجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان ومازونة...[37]، فالمكتبات العامة هي الملحقة بالمساجد والزوايا والمدارس[38]، أما المكتبات الخاصة فكانت كثيرة وقد اشتهرت بها الكثير من العائلات كعائلة الفكون بقسنطينة التي كانت لها مكتبة ضخمة أصبحت مضرب الأمثال بعد الاحتلال الفرنسي[39].

وكانت السيادة في محتوى المكتبات للعلوم الدينية، فكثرتها كانت من كتب التفاسير والقراءات والأحاديث النبوية وشروحها وكتب الفقه والأصول[40] والتوحيد ونحو ذلك، كما كان للعلوم اللغوية والعقلية الأخرى حظ في هذه المكتبات.

6- الدكاكين التجارية: والتي كانت تستعمل نهارا للبيع والشراء وفي الليل للمسامرات الأدبية[41].

7- الأندية المنزلية: وهي التي كانت تقام في منازل وجهاء البلاد وأعيان ذوي النفوذ والسلطة المحلية، فكان الداي والباي والآغا والقاضي والمفتي يجتمع لدى كل منهم بعض من الرعية بعد تناول العشاء في منازلهم ثم يشرعون في قراءة كتاب ما قد اتفقوا على قراءته، وكانت منازل العلماء أندية ومراتع دروس يومية يتلقاها الطلبة عن هؤلاء العلماء في منازل العلماء[42]

ب- النتاج العلمي: إن أغلب إنتاج الجزائر خلال العهد العثماني يكاد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية والمجالات الأدبية، وقد جاء ما يترجم ذلك في الباب الثاني من رحلة أبي راس والذي سماه: **"في ذكر أشياخي النافضين عني قشب أوساخي: شريعة وحقيقة وقرآنا وطريقة"**، فمن هذا العنوان يمكننا اكتشاف العلوم التي درسها أبو راس المعسكري، والتي كانت موجودة في عصره،إذ كانت العلوم المذكورة تسيطر على الحياة العلمية آنذاك،فالعلوم **الشرعية** تتمثل في القرآن وعلومه كالتفسير والقراءات، وعلوم الحديث رواية ودراية، والفقه من عبادات ومعاملات كالنوازل، بما في ذلك الإجازات العلمية في مختلف هته العلوم، أما العلوم الصوفية فتتمثل في علم التصوف والمنطق وعلم الكلام، أما المجالات الأدبية فتشمل اللغة وما يتعلق بها من نحو وبلاغة وشعر، وغيرها من الألوان الأدبية الأخرى[43].

1- القرآن وعلومه: تحدث أبو راس عن تدريس القرآن الكريم وتعليمهفي كثير من المواضع والتي من خلالها نستطيع تحديد العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم التي كانت موجودة في الجزائر على عهد الأتراك، وبالأخص زمن أبي راس المعسكري (النصف الثاني من القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر الهجري، والقرنيين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي) ومنها ما ذكره حين تحدث عن والده أنه كان مدرسا للقرآن، فبعد موت أمه "انقلب الوالد إلى "حوز مجاجة" واعتكف على القرآن وتعليمه للرجال والصبيان"[44] ومن علوم القرآن الكريم التي أوردها أبو راس:

- **حفظ القرآن الكريم**: فقد كان الأولاد يتعلمون القرآنويحفظونه وهم صغارا، بل حتى قبل تعلمهم حروف العربية، فقد ذكر أبو راس أنه قرأ القرآن في حال صغره، ومن ذلك ما قالهفي حديثه عن أول شيوخه: "أول أشياخي والدي الشيخ أحمد قرأت عليه إلى: {تلك الرسل فضلنا}، وأنا صغير جدا، وأول بدئي من سورة {إذا السماء انفطرت}، ولم أقرأ "أ، ب، ت، ث" إلخ وتعلق في حفظي ما تحتها من غير تعليم، ولم يعلم لي أحد الحروف بنقشها، ولم أتبعها أبدا، بل بدأت من السورة المذكورة أكتب بيدي..."[45]

- **أحكام القرآن (التجويد):** وبالإضافة إلى حفظ القرآن في الصغر كان الأولاد يتعلمون أحكام التجويد، فقد ذكر أبو راس أنه قرأ أحكام القرآن وحفظها عن ظهر قلب، فقال:" قرأت أحكام القرآن وحفظتها على ظهر قلبي" ، كما كانوا يحفظون المتون المتعلقة بأحكام التجويد، ومنها متن ابن الجزري[46].

- **روايات القرآن (القراءات القرآنية)**: رغم قلة التأليف في القراءات كغيرها من العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم في ذلك العهد إلا أن الجزائريين قد اشتهروا بتدريس القراءات، كما اشتهرت بعض المراكز في الجزائر بتدريس القراءات خاصة زواوة التي كانت مقصودة للعلماء للإتقان والبراعة، فقد تثقف في الجزائر عدة علماء من خارجها في علم القراءات أمثال: الشيخ محمد بن مزيان التواتي المغربي الذي ورد على قسنطينة من المغرب ولم يستغن عن الذهاب إلى زواوة لتعلم القراءات السبع بها، وكذلك الشيخ العالم التونسي أحمد بن مصطفى برناز[47]، وقد تحدث أبو راس عن القراءات القرآنية فذكر أن أهل

إفريقية (بلاد المغرب) غالب قراءتهم "قالون"، وأما أهل الأندلس فعلى قراءة أبي الأزهر عن ورش..، وبهذا الصدد ذكر أنه أتقن القرآن الكريم بروايتي قالون وورش فقال: "فأتقنت على الشيخ منصور القرآن برواية قالون وورش عن شيخهما نافع.."، كما ذكر أن عدد شيوخه في القرآن الكريم بلغ ثمانية شيوخ[48].

- **التفسير:** ومن بين علوم القرآن التي تدرسفي ذلك العهدعلم التفسير، إذ كان معظم المفسرين للقرآن الكريم في مجالس الدروس في أغلب الأحيان يكررون أقوال المفسرين المتقدمين، ومن أشهر المفسرين في زمن أبي راس (القرن الثالث من العهد العثماني في الجزائر)، أبهلول، الراشدي القسنطيني، بالإضافة إلى أبي راس نفسه[49]، وقد كان تفسير القرآن في ذلك الوقت يتم عن طريق التدريس مشافهة أكثر منه تأليفا وكتابة، لأن الخوض في التأليف في التفسير كان قليلا جدا خاصة في القرنيين الأوليين للعهد العثماني في الجزائر فتكاد الوثائق والأخبار تخلو تماما من ذكر لأحد المؤلفات في التفسير، بالرغم من وجود بعض العلماء الكبار المشهورين بعلمهم الغزير في مختلف المجالات خاصة الدينية منها، أما في القرن الثالث للوجود العثماني في الجزائر فظهرت هناك بعض التآليف في التفسير رغم قلتها كما ذكر ذلك أبو راس في رحلته، ومنهم أبو راس نفسه، فقد ذكر حينما تحدث عن مؤلفاته أنه وضع تفسيرا للقرآن الكريم سماه: **"التيسير إلى علم التفسير"** في ثلاثة أسفار وكل سفر يحتوي على عشرين حزبا، كما يوجد أيضا محمد الزجاي الذي كان معاصرا لأبي راس، الذي اعتبر من زهاد العصر وعلمائه[50].

2- الحديث: يعتبر علم الحديث من أهم العلوم التي أنتج فيها الجزائريون في العهد العثماني، فقد اعتنوا به تدريسا وتأليفا ورواية وإجازة، إذ كان العمل عندهم بالكتب الستة يدرسونها ويحفظونها، وخاصة صحيح البخاري الذي فاقت عنايتهم به كل عناية، فقد كان متداولا عندهم أكثر من غيره، فكتبوا عليه الشروح والحواشي وتدارسوه للبركة والحفظ، وقد كان صحيح البخاري يدرس في الجوامع الكبيرة احتراما له، كما كان لا يتولى إملاء الحديث إلا كبار العلماء وذوو الأصوات الحسنة والجهورية[51]، وكان الجزائريون كثيرو

الاهتمام بعلم الحديث، فلعدم وجود معاهد عليا في بلادهم (الجزائر) كانوا يرحلون ويسافرون من أجل طلب العلم، في تونس ومصر والشام والحرمين أثناء الحج، فكانوا يتتلمذون على كبار العلماء ويحصلون منهم على إجازات علمية خصوصا في علم الحديث، ثم يعودون لبلادهم وينشرون هذا العلم عن طريق الإجازة، وقد ساعدهم على ذلك قوة الحفظ التي اشتهروا بها..، فهذا أبو راس لقب بالحافظ في الكثير من البلدان الإسلامية التي زارها، كما ذكر ذلك في رحلته، وقد كان من أكثر العلماء إنتاجا في عصره وكان إنتاجه متنوعا تنوع ثقافته[52]، إذ ساهم في علم الحديث أيضا.

3- الفقه: لقد كان الإنتاج الفقهي في الجزائر في العهد العثماني بما يشمل عليه من أصول وفرائض وفتاوى، يرتكز على الفقه المالكي، لأن معظم سكان الجزائر يتبعون مذهب الإمام مالك، بالإضافة إلى المذهب الحنفي الذي دخل الجزائر منذ مجيء العثمانيين، كما لا ننسى مذهب الإباضية الذي هو جزء لا يتجزأ من الثقافة الجزائرية، و كان أساس الانطلاق في التفكير الفقهي من **"مختصر خليل"** على الخصوص، ثم "مختصر ابن الحاجب"، و"الرسالة"[53]، وكان التدريس في الفقه يتم عن طريق الإملاء للتلاميذ بكراسة شرحا، أو حاشية.

ويلاحظ على الآثار الفقهية سيطرة "مختصر خليل" كما سبقت الإشارة على مختلف الدراسات الفقهية المالكية في الجزائر، فهو يأتي في المقام الثالث بعد القرآن الكريم وصحيح البخاري، ولم يكن خليل بن إسحاق مصدرا للفقه والتشريع فقط، بل كان مصدرا للتبرك به أيضا، إذ غلب على أكثر الفقهاء التصوف..، وقد اشتهر من الأماكن بالفقه تلمسان ومازونة، فهذه الأخيرة أصبحت تنافس تلمسان في الفقه ومن أهم خريجيها مؤلفنا أبو راس[54] الذي تحدث عن تعلمه للفقه فقال: "ولما أتقنت القرآن بأحكامه...انتقلت لقراءة الفقه، فقرأت على فقهاء **"أم عسكر"**..، ومنهم قاضي معسكر، ومن الفقه يدرس المصنف" (مختصر خليل)، فقد ذكر أنه أصبح يدرس المختصر للطلاب ويختمه في العام ثمان مرات حتى أصبح له من الطلاب سبعمائة وثمانون طالبا[55]، ومن الأمور الفقهية التي كانت موجودة ويكثر فيها التدريس والتأليف

وجدت النوازل والفرائض والفتاوى، فهناك بعض الفتاوى ذات الموضوع المحدد كرأي أحد العلماء في قضية معينة عرضت له أو سئل عنها، وقد ذكر أبو راس من بعض الفتاوى ما يتعلق بشرب القهوة والدخان، حيث شغلت قضية تناول الدخان بعض العلماء فأفتوا فيها ومن بين هؤلاء العلماء عبد الكريم **الفكون** الذي ألف في هذا الصدد **"محدد السنان في نحور إخوان الدخان"** حيث هاجم فيه متناولي الدخان وحكم بتحريمه لأنه في نظره يحدث نشوة، ويتصل بعلم الفقه موضوع التركات والأوقاف والفرائض وقد ألف في الأوقاف **أحمد بن عمار** رسالته المسماة **"رسالة في مسألة وقف"**[56].

4- المجالات الأدبية (اللغة والنحو والبيان والعروض والشعر): لم يهتم الجزائريون في العهد العثماني كثيرا بالتأليف في علوم اللغة عموما ولكنهم أكثروا الاهتمام بالنحو خاصة، فقليل من العلماء الذين ألفوا في علم اللغة المحض ومن هؤلاء: **أحمد بن بن محمد بن علي بن ويغلان البجائي**في كتابه: **"الروض النظيم في معاني حروف المعجم"** الذي نسبه إليه بروكلمان، **ومحمد بن بدوي الجزائري المعسكري** صاحب كتاب: **"الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء"** [57]، كما ذكر أبو راس أنه ألف في اللغة كتابا سماه: **"ضياء القابوس على كتاب القاموس"**[58].

أما النحو فأكثروا الاهتمام به، وخلفوا فيه إنتاجا وافرا، وقد اشتهرت زواوة باعتبارها مدرسة هامة في علم النحو، وقد عرف علماء الجزائر بحفظ متون النحو وبعض الشروح[59]، وإدراك مسائلها عن ظهر قلب، ومما كان يدرس من النحو: **"ألفية ابن مالك"** التي كانت معروفة ومحفوظة عند الجزائريين من الكبير إلى الصغير، يتحدثون بها في المجالس، وقد ذكرها أبو راس حين تحدث عن تدريسه لها بعد أن سردها له بعض طلبته، كما أخذت **"الأجرومية"** إلى جانب الألفية بحظ وافر من عناية الجزائريين المؤلفين منهم: محمد **الصباغ** القلعي الذي ألف **" الدرة الصباغية في شرح الأجرومية"**، وكذلك خليفة بن حسن **القماري** الذي نظم قصيدة في الأجرومية سماها: **"اللامية في نظم الأجرومية"** فكانت الأجرومية ملح الطعام عند مدرسي وطلاب الجزائر[60]، كما كان كتاب **"التوضيح"** مشهورا في زواوة يدرسونه

ويعتنون به قراءة وإقراء ، وقد اشتهر بعض الجزائريين بالدراسات النحوية أمثال يحيى **الشاوي** الذي ترك على الأقل أربعة تآليف في النحو منها: **"نظم لامية في إعراب اسم الجلالة"**، و**"شرح على التسهيل لابن مالك"**، و**"حاشية على شرح المرادي"**...، وعبد الكريم **الفكون** الذي ألف عدة كتب في الصرف والنحو ومنها: **"فتح المولى بشواهد ابن يعلى"**، و**"شرح على أرجوزة المكودي في التصريف"**، ومن المدرسين الذين وضعوا شروحا في النحو: سعيد قدورة الذي اشتهر كمدرس بوضع الحواشي على الكتب التي كان يدرسها لتلاميذه، فقد وضع حاشيته على خلاصة المرادي سماها: **"رقم الأيادي على تصنيف المرادي"**[61]، كما ألف **أبو راس** في النحو ما أحصاه: **"النكت الوفية بشرح المكودي على الألفية"**، **"عمدة الزهاد في إعراب كلا شيء وجئت بلا زاد"**، و**"نفي الخصاصة في إحصاء تراجم الخلاصة"**[62]، ومن الذين ألفوا في النحو أيضا: محمد بن راشد **الزواوي**، ومحمد **الزجاي**، **والبوني** وغيرهم.

أما البيان والبلاغة والعروض فلم يكن اهتمام علماء الجزائر بهذه الفنون كاهتمامهم بالنحو، ومن أشهر من ألف في هذا المجال عبد الرحمان **الأخضري** الذي نظم **"الجوهر المكنون"** في علمي البيان والمعاني (البلاغة) ثم شرحه بنفسه، ولكنه توفي قبل تبييض شرحه وصقله، فكان ذلك حافزا لعدد من العلماء على استكمال النقص، ومن هؤلاء العلماء: أحمد بن العطار **القسنطيني** الذي ألف: **"نزهة العيون"**، وعبد الكريم**الفكون**، **ومحمد بن علي بن موسى الثغري الجزائري** الذي سمى شرحه**: "موضح السر المكنون على الجوهر المكنون"**[63] ، وأما خارج أعمال الأخضري فتبقى الجهود في البلاغة والبيان والعروض قليلة، منها مؤلف محمد بن محمود بن العنابي في البلاغة **"التحقيقات الإعجازية بشرح نظم العلاقات المجازية"**، كما ذكر أبو راس أنه قد ألف في العروض: **"شرح مشكاة الأنوار التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار"**[64].

ومما سبق يظهر أن العناية بعلم البلاغة والعروض عند الجزائريين كانت ضعيفة، بالمقارنة مع النحو وغيره من فنون النثر الأدبي، فقد كان الأدب الجزائري في العهد العثماني غنيا ببعض فنون النثر كالمقامات والرسائل

الرسمية والإخوانية، والوصف والتقاريظ والتعازي وعقود الزواج والإجازات، والشروح الأدبية، وبالمقابل كان الأدب يفتقر لبعض الفنون الأخرى كالخطب والقصص إلا نادرا جدا، ورغم نقص بعض فنون الأدب نجد أن أبا راس كان من الذين اهتموا بأغلب هذه الفنون، فذكر أنه تقلد الخطابة وشرح المقامات...[65]

أما بالنسبة إلى حالة الشعر في العهد العثماني فقد كان نسبيا مزدهرا وأن أغراضه قد تعددت حسب بواعثه (الذاتية، الدينية، السياسية، الاجتماعية...).

5- التاريخ: ما يلاحظ على إنتاج الجزائريين في العهد العثماني فيما يتعلق بالتاريخ، أنهم لم يكتبوا في التاريخ العام إلا قليلا، وبالمقابل لهم عدة أعمال في التاريخ المحلي، فمن أبرز من كتب في التاريخ العام أحمد **المقري** صاحب **"نفح الطيب"**[66]، وقد ألف أبو راس نفسه في علم التاريخ سواء العام أو المحلي؛ فقد ذكر في رحلته عدة مؤلفاته في التاريخ منها: **"زهرة الشماريخ في علم التاريخ"، "المنى والسول من أول الخليفة إلى بعثة الرسول"، "در الشقاوة في حروب درقاوة"، "غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس مع الكفار"، و"مروج الذهب في نبذة من النسب ومن انتمى إلى الشرف وذهب"**[67]، ومن الحوادث الهامة في الجزائر آنذاك التي ألف فيها الجزائريون **"فتح وهران الأول"، ومنها** ما ألفه **محمد بن ميمون:" التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية"**، وكذلك **"فتح وهران الثاني"**، الذي حظي بعدة مؤلفات ومعظمها كتبت من طرف أنصار الباي الفاتح محمد الكبير الذي كان يشجع الأدباء والكتاب على مدحه وتخليد اسمه في أشعارهم ومؤلفاتهم، ومن هذه المؤلفات عمل **ابن زرفة** الكاتب الخاص بالباي الذي سماه**: "الرحلة القمرية في السيرة المحمدية"** وهو عمل في سيرة الباي محمد الكبير وجهوده[68]، كما يعتبر **ابن سحنون** من أبرز من خلد فتح وهران الثاني ومناقب الباي محمد الكبير فنظم في ذلك أرجوزة، ثم شرحها في **" الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"**، بالإضافة إلى ما قام به أبو راس من

تأليفه قصيدة في فتح وهران ثم شرحها بطلب من الباي نفسه، فشرحها في كتابه **"عجائب الأسفار ولطائف الأخبار"**[69].

6- التصوف: لقد ساد التصوف في الجزائر أثناء العهد العثماني في شتى مجالات الحياة تقريبا، فلم يكن إنتاج العلماء إلا مصبوغا بالزهد والموعظة والالتزام بمبادئ المتصوفين والزهاد.. [70]، وقد كثرت العناية بدراسة التصوف وما يتصل به من مناقب وأذكار ومرائي وعلوم أهل الباطن، وقد كان عدد من الأساتذة يتناولون تدريس التصوف في مجالسهم العلمية ومن الذين ذكرهم أبو راس: **سعيد قدورة** الذي كان يدرس كتاب: **"الحكم" و"لتنوير" لابن عطاء الله**[71]، كما ألف أبو راس: **"الزهر الآكم في شرح الحكم،** أو **"فتح الإله في التوصل إلى شرح حكم ابن عطاء الله"**، كما ألف أيضا **"الحاوي لنبذ من التوحيد والتصوف والأولياء والفتاوي"**، و**"التشوف إلى علم التصوف"**، كما ألف أيضا: **"كفاية المعتقد ونكاية المنتقد"** على شرح الكبرى للشيخ السنوسي[72]، والتصوف الحقيقي كما عبر عنه أبو القاسم سعد الله هو "الذي تتوفر فيه شروط أساسية منها معرفة الكتاب والسنة معرفة دقيقة والعلم بهما والجمع بين العلم والعمل والسعي إلى معرفة الله حق المعرفة عن طريق التأمل والنظر والتفكير في مخلوقاته بالإضافة إلى التقى والورع والتجرد عن الهوى النفس وحب الدنيا والابتعاد عن مغريات السياسة والسلطة وعدم التعاون مع الظلمة والمتجبرين"، وقد ظهر في الجزائر في ذلك الوقت، ثلاثة أصناف من المتصوفين: صنف العلماء والفقهاء المستقلين عن التصوف العملي، وصنف العلماء الذين غلب عليهم التصوف، وصنف المتصوفة المدعون للعلم لغرض ما ، وقد عمت الخرافة المتعلمين والعلماء والدراويش على حد سواء بسبب الانتشار الكبير للتصوف ومساندة السلطة العثمانية للمرابطين وساعدت على انتشار الطرق الصوفية في الجزائر من المشرق والمغرب[73]، ويتصل بالتصوف علم الكلام والمنطق.

- علم الكلام: كان الجزائريون في العهد العثماني يعتبرون علم الكلام أو كما يسمونه علم التوحيد من أهم العلوم، إذ كانت عقائد الأشعري (عقائد جمهور أهل السنة) هي السائدة لدى الجزائريين، وكانت مؤلفات **محمد بن**

يوسف السنوسي في العقائد هي المصدر المحلي لدراسة علم الكلام، وهذه المؤلفات هي: العقيدة الصغرى والعقيدة الوسطى والعقيدة الكبرى، وقد ارتكزت جهود المدرسين بالعقيدة الصغرى المسماة (**أم البراهين، أي: صغرى السنوسي**)، وقد اصطبغت هذه المؤلفات بالصبغة الصوفية، وقد قال السنوسي "شيخ الموحدين" _كما يسمونه_ عن علم الكلام أنه: " ليس علم من علوم الظاهر يورث معرفته تعالى ومراقبته إلا علم التوحيد وبه يفتح له في فهم العلوم كلها، وعلى قدر معرفته به يزداد خوفه منه تعالى وقربه منه"، كما اشتهر أيضا مؤلف أحمد **المقري**: **"إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة"** والتي أصبحت تنافس عقيدة السنوسي في الأهمية، ومن الذين كتبوا عن العقيدة الصغرى للسنوسي وتناولها بالتدريس والتعليق سعيد قدورة الذي كان من مشاهير المدرسين[74]، وقد شاعت في الجزائر تفسيرات كثيرة تتخذ علم الكلام منطلقا لها، فكان العلماء يدرسون ذات الله وصفاته، وإيمان العالم وإيمان المقلد، واختلف علماء الكلام حول تعلق قدرة الله بالحيز أو لا، كما لا ننسى أيضا أبا راس الذي ألف في مسائل التوحيد كتابه: **"الزهر الأكم في شرح الحكم"**، وقد كان أبو راس ولوعا بمناقشة مسائل علم التوحيد مع علماء عصره[75]، وقد أورد بعض المسائل في رحلته مثل: قضية ذات الله وصفاته.

- **المنطق:** لقد كان إنتاج الجزائريين في علم المنطق نادرا جدا، ويعود السبب في ذلك إلى صعوبة هذا العلم الذي يتطلب الاطلاع الواسع على كتابات الأولين والأجانب والإضافة عليها ونقدها، وكذلك طغيان التصوف على الجزائريين الذي حذا بأصحابه إلى الاكتفاء بعلوم الباطن واعتبار علم المنطق من علوم الظاهر التي قد تؤدي إلى الكفر والإلحاد والزندقة..، ولكن رغم ذلك فقد ألف بعض الجزائريين في المنطق، ومن أشهرهم في العهد العثماني عبد الرحمان **الأخضري** خاصة كتابه: **"السلم المرونق"** الذي جذب إليه اهتمام العلماء الآخرين لشرحه ودراسته والتعليق عليه، ومن الذين اشتغلوا بالشرح والتعليق على عمل الأخضري في المنطق سعيد قدورة وابن حمادوش[76]، كما ذكر أبو راس أنه ألف في هذا الشأن: **"القول المسلم في شرح السلم"**، وقد

ذكر أبو راس أنه قرأ المنطق والبيان على الشيخ السيد السنوسي بن السنوسي[77]

ج- رجال العلم: لقد ذكر أبو راس عددا هائلا من العلماء الذين عاصرهم، ومن بين أكبر العلماء الجزائريين في العهد العثماني، والذين ذكرهم أبو راس في رحلته:

1- **الشيخ محمد بن مولاي علي بن سحنون**: قاضي معسكر، وهو من كبار فقهاء الجزائر.
2- **الشيخ ابن علي ابن الشيخ أبي عبد الله المغيلي**، الفقيه الشهير.
3- **الشيخ العربي ابن نافلة** صاحب الأصول والفروع.
4- **الشيخ محمد الصادق بن أفغول**: والذي لقبه بشيخ الإسلام "وهو الحافظ والمتقن للمصنف في الفقه، والذي كان جامعا للعلوم، وبارعا في فنون العلوم، وكان مقدما في معرفة الحديث على أقرانه ومنفردا في هذا الفن النفيس في زمانه"[78].
5- **أحمد بن عمار**: وهو من أشهر العلماء على عهد أبي راس، "السيد الذي استحق لقب شيخ الإسلام فكان له أهلا، فهو عالم الجزائر، الذي تولى الفتوى والخطابة، والذي أخرج بالجزائر الأساتيذ والتلاميذ والفقهاء النحارير والعلماء الجماهير، فهو العلام المشارك في أنواع العلوم الدارك الواسع الرواية الحسن الدراية صاحب الرحلة الجمة الفوائد حلوة الموائد عذبة الموارد الجليل القدر"[79]
6- **الشيخ محمد بن جدعون**: وهو قاضي في الجزائر العاصمة، والذي استفاد منه أبو راس بعض الفوائد من الفقه.
7- **الشيخ محمد بن عبد الرحمن التلمساني:** وهو "علم تلمسان وعالمها وعاملها وقاضي الجماعة بها، الذي جمع متفرقات العلوم".
8- **الشيخ البيدري**
9- **الشيخ العربي بن قيزان:** وهو عالم مستغانم في النحو..
10- **الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي:** وهو الذي أتقن علوما جمة، منها: الفقه والأصول، وعلم الكلام، والنحو، والبيان. [80]

11- الشيخ السنوسي بن السنوسي: والذي قرأ عليه أبو راس المنطق والبيان، وبالمقابل قرأ على أبي راس الفقه.

12- السيد عبد الرحمن البدوي القرومي: وهو عالم جليل بالجزائر[81]

وبالإضافة إلى هته الأمور العلمية الثلاث التي ركزنا الحديث عنها، هناك أمور أخرى تترجم الحالة العلمية في الجزائر أثناء الفترة العثمانية خاصة في النصف الأول من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر الميلادي)، أي زمن أبي راس المعسكري؛ فقد كانت هناك عدة أمور علمية أخرى كالمناظرات والمجالسات والمحاورات العلمية، وكذلك تنقل العلماء سواء من الجزائر إلى خارجها (كالهجرة إلى بلدان المغرب العربي لأخذ العلم خاصة إلى المغرب الأقصى والرحلة إلى المشرق قصد الحج وأخذ العلم من منابعه الأصلية)، أو من الخارج إلى الجزائر(كمجيء علماء المغرب لطلب العلم في الجزائر خصيصا، أو أخذهم العلم من علماء الجزائر وهم في طريقهم إلى الحج).

13- سعيد قدورة: وهو أشهر مدرس في ذلك العهد، إذ كانت له مشاركة في تدريس مختلف العلوم.

15- عبد الكريم الفكون: وهو عالم جليل له من الشهرة ما لغيره من علماء عصره، وقد لقيه أبو راس عند زيارته لقسنطينة.

16- أحمد المقري: وهو صاحب "نفح الطيب" ذكره أبو راس عند الحديث الفكون، وأنه قرأ المراسلات بينهما وهو في قسنطينة[82]

وهذين العالمين الأخيرين من أشهر العلماء في تلك الفترة، ولهما تآليف في مختلف علوم العصر.

د- أهم المظاهر المميزة للحالة العلمية بالجزائر في العهد العثماني:

إن المتصفح لتاريخ الجزائر في العهد العثماني والمتأمل للحالة العلمية، خاصة ما أورده أبو راس في رحلته موضوع الدراسة يلاحظ عدة مظاهر اصطبغت بها الحالة العلمية، ومن أبرزها: المجالس العلمية، وما يحدث فيها من مناقشات ومناظرات بين العلماء، وكثرة الشيوخ والإجازات، وكذلك ظاهرة الحفظ والتقليد، بالإضافة إلى هجرة العلماء.

1- مجالس العلم: والتي كثيرا ما يلتقي بها العلماء خاصة في المساجد وتدور بينهم محادثات ومجادلات ومناظرات ومذاكرات علمية سواء بين علماء الجزائر مع بعضهم، أو بين علماء الجزائر وعلماء زوار كعلماء المغرب وتونس ومصر..، وقد أورد أبو راس الكثير من هذه المجالس العلمية وما يتبعها أو يحدث فيها من أمور علمية لا يسعنا المجال لذكرها.

2- هجرة العلماء: كان العلماء في الجزائر خلال الفترة العثمانية على غرار علماء البلدان الأخرى محبون للرحلة، والترحال من أجل طلب العلوم في شتى بقاع العالم الإسلامي، فكانت هجرة العلماء رحلتان: الرحلة في طلب العلم من منابعه، والرحلة إلى بيت الله قصد الحج وزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم واغتنام فرصة الحج لطلب العلم في بلاد المشرق، وقد تحدث أبو راس عن هذه الحالة رحلته هو بالخصوص فقد رحل إلى المغرب وبالضبط إلى فاس من أجل طلب العلم..، كما رحل إلى المشرق قصد الحج ومنه زار مختلف بلاد المشرق والتقى بعلمائها ودارت بينه وبينهم محاورات ومناظرات علمية أثبتت جدارته في مختلف العلوم حتى أصبح مشهورا عندهم بغزارة علمه وحفظه.

وما يلاحظ أيضا على الحالة العلمية

3- **ظاهرتا الحفظ، والتقليد:** اشتهر العلماء في الجزائر في ذلك العهد (العثماني) بالحفظ، وكان أبو راس من أكثر العلماء حفظا حتى صار يلقب بالحافظ، فكانت مختلف العلوم تحفظ عن ظهر قلب، فقد ذكر أبو راس أن الفقهاء السبعة ليس لأحدهم كتاب لأن "شأن العلم أن يحفظ "على حد قوله، كما يلاحظ عن العلوم أيضا أنها مقلدة تقليدا مبالغا فيه، إذ تجد العالم يؤلف على ما ألفه السابقين ويزيد عليه شرحا أو حاشية فقط، وقل ما يوجد هناك من المجددين إلا نادرا.

4- كثرة الشيوخ: خصص أبو راس بابا كاملا من رحلته لذكر أشياخه، وذلك في قائمة طويلة جدا يصعب عدها، ومن بين ما ذكر أن له في القرآن وحده ثمان شيوخ، ناهيك عن شيوخه في العلوم الأخرى فهم كثيرون، وهو يفتخر بكثرة شيوخه كما يفتخر الكثير من العلماء، وينجر عن كثرة الشيوخ كثرة الإجازات العلمية التي يمنحها الشيوخ لتلامذتهم.

والملاحظ عن الإنتاج العلمي في الجزائر كما سبق الذكر أنه يكاد ينحصر في العلوم الشرعية والصوفية وبعض المجلات الأدبية، والملاحظ أيضا أنك تجد العالم الواحد من العلماء يؤلف في جميع هذه العلوم إذ تجده إماما خطيبا ومفتيا فقيها قاضيا نزيها ومفسرا للقرآن ومتصوفا زاهدا وأديبا نحويا وشاعرا فحلا، فهو عالم من علماء قطره متشبع بعلوم عصره له اليد الطولى في شتى ألوان العلوم والفنون الموجودة آنذاك.

خاتمة:

من خلال ما سبق ذكره توصلت هذه الدراسة إلى عدة نتائج، وهي كالتالي:

- لقد وفق أبو راس المعسكري إلى حد كبير في وصف الحالة العلمية للجزائر في العهد العثماني في زمنه، أي (أواخر القرن الثامن عشر ، وبدايات القرن التاسع عشر للميلاد)، إذ ألم بمختلف مظاهر الحياة العلمية المعاصرة له، من ذكر لمختلف المراكز العلمية، ومختلف علماء عصره الذين اشتهر أمرهم في الجزائر، كما ذكر أهم إنتاج هؤلاء العلماء في مختلف العلوم الموجودة في ذلك العهد، كما أشار إلى أشهر العلوم التي كانت تدرس في تلك الفترة، بالإضافة إلى ذكره لمختلف المظاهر العلمية التي ميزت الحياة العلمية آنذاك كالمجالس العلمية والمناظرات بين العلماء والإجازات العلمية، وغيرها، وبذلك كانت رحلته علمية بامتياز.

- يكاد ينحصر الإنتاج العلمي في الجزائر في العهد العثماني عموما وزمن أبي راس خصوصا، في العلوم الشرعية والصوفية وبعض المجلات الأدبية.

- من الملاحظ على الحالة العلمية في الجزائر خلال الفترة العثمانية، أن العالم الواحد من العلماء لا يقتصر على التأليف في تخصص أو علم واحد فقط، بل يتعداه إلى التأليف في مختلف بل جميع علوم عصره، والمتمثلة في العلوم الشرعية من قرآن، وحديث، وفقه..، والصوفية من علم التوحيد، وأوراد وأذكار..، وفي مختلف المجلات الأدبية سواء في النحو أو البلاغة، أو تنظيم القصائد الشعرية، وغيرها من الألوان الأدبية الأخرى.

وفي الأخير نخلص إلى أن أبو راس كان نموذجا حيا لمختلف مظاهر الحياة العلمية في الجزائر خلال الفترة العثمانية التي ذكرها في رحلته، فقد مارسها في حياته، حيث كان عالما نحريرا، ومدرسا، ومؤلفا في مختلف علوم العصر، كما كان حافظا يضرب به المثل في الحفظ حتى خارج الجزائر.

قائمة المراجع:

1- الآغا عودة المرازي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التسع عشر، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م، ج1.

2- سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري "دراسة في النشأة والتطور والبنية"، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2009م.

3- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء فيتاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط3، 1990م.

4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.

5- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، د.ت، 1906م.

6- الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني "بناؤها الفني، أنواعها وخصائصها"، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة ورقلة، الجزائر، 2014م.

7- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1980م.

8- عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات "مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة"، مؤسسة الفرقان للتراث الإنساني، الرياض، د.ط، 2005م.

9- محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، تحقيق: محمد عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.م، د.ط، د.ت.

10- محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م.
11- يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1995م.

الهوامش

(1) عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، ط2، 1980م، ص 306.
(2) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت _لبنان_، ط3، 1990م، 86/1. وينظر: سميرة أنساعد 69،70 بتصرف
(3) يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، دار الغرب الإسلامي، بيروت_لبنان_، ط1، 1995م، 234/2.
(4) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م، 378/2.
(5) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، 1/ 88.
(6) أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 2 /378.
(7) الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني "بناؤها الفني، أنواعها وخصائصها"، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، 2014م،.ص279.
(8) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، 337/2.
(9) سميرة أنساعد، الرحلة إلى المشرق في الأدب الجزائري "دراسة في النشأة والتطور والبنية"، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2009م، ص 70، 71.
(10) محمد أبو راس الجزائري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته "حياة أبي راس الذاتية والعلمية"، تحقيق: محمد عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.م، د.ط، د.ت، ص12. وينظر: الآغا عودة المرازي، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التسع عشر، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1990م،349/1.
(11) أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، د.ت، 1906م، ص 333.

(12) محمد أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق،ص 181.
(13) أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، 91/1، 92.
(14) يحيى بوعزيز، أعلام الفكر والثقافة، مرجع سابق، 240/2، 241.
(15) محمد أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق، ص 179_181.
(16) عبد الهادي التازي، رحلة الرحلات "مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة"، مؤسسة الفرقان للتراث الإنساني، الرياض، د.ط، 2005م، ص 455.
(17) محمد أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق، ص12.
(18) المصدر نفسه، ص15.
(19)الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص316
(20) أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق، ص15. وينظر: الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص317.
(21) أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق، ص91.
(22) الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني، مرجع سابق، ص317.
(23) أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق، ص91.
(24) محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981م، ص 58.
(25) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق،227/1.
(26) ابن ميمون، التحفة، مرجع سابق،ص 59.
(27) سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 246/1.
(28) المرجع نفسه، 246/1، 247.
(29) المرجع نفسه،277/1.
(30) نفسه، 262/1، 272.
(31) ابن ميمون، التحفة، مرجع سابق، ص 58، 59.
(32) المرجع نفسه،ص 59. وينظر: سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،مرجع سابق، 274/1.
(33) ينظر سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 276/1.
(34) المرجع نفسه، 286/1.
(35) نفسه، 289/1.
(36) نفسه، 292/1.
(37) ابن ميمون، التحفة، مرجع سابق، ص61.
(38) ينظر: سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق،296/1.
(39) المرجع نفسه، 297/1.

(40) المرجع نفسه، 297/1.
(41) ابن ميمون، التحفة، مرجع سابق، ص 59.
(42) المرجع نفسه، ص 60.
(43) سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 9/2، بتصرف.
(44) أبوراس، فتح الإله، مصدر سابق، ص 19.
(45) المصدر نفسه، ص 19.
(46) ينظر: المصدر نفسه، ص 42.
(47) ينظر: سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 20/2 ،21.
(48) أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق،ص19، 42.
(49) سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي،مرجع سابق، 12/2 بتصرف.
(50) المرجع نفسه، 2/ 19 بتصرف.
(51) المرجع نفسه، 25/2 بتصرف.
(52) نفسه، 26/2، 27، 36.
(53) ينظر: المرجع نفسه، 2/ 65.
(54) نفسه، 2/ 67.
(56) ينظر: المرجع نفسه، 2/ 80، 82، 85.
(57) نفسه،166/2.
(58) أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق، ص180.
(59) ينظر: سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق،2/ 157.
(60) أبوراس، فتح الإله، مصدر سابق،ص 24. وينظر: سعد الله،مرجع سابق، 158/2، 159، 162.
(61) ينظر: سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 2/ 160،161.
(62) أبوراس، فتح الإله، مصدر سابق، 180.
(63) سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 167/2.
(64) أبو راس، فتح الإله، مصدر سابق، ص 180.
(65) المصدر نفسه،ص24. وينظر: سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 170،171/2.
(66) المرجع نفسه، 329/2.
(67) أبوراس، فتح الإله، مصدر سابق، ص 180،181.
(68) سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 336،341/2.
(69) المرجع نفسه، 2/ 142،143،144.
(70) نفسه، 91/2.

(71) ينظر: المرجع نفسه،472/1.
(72) أبوراس، فتح الإله، مصدر سابق، ص180.
(73)ينظر: سعد الله،تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، 480/1، 482،481.
(74) ينظر: المرجع نفسه، 1/ 98،97،96،92.
(75) ينظر: المرجع نفسه، 93/1، 100، 101.
(76) المرجع نفسه، 2/ص149، 151.
(77) أبوراس، فتح الإله، مصدر سابق، ص73.
(78) المصدر نفسه،ص 45.
(79) نفسه، ص 44، 48، 91.
(80) نفسه، ص 49، 50، 53.
(81) نفسه، ص 73، 92.
(82) نفسه، ص98.